

هَلْ أُنْتُكَ حَدِيثُ مُوسَى (١٥) إِذْ نَادَتْهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكِبُ (١٨) وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَنَخْسِفْ (١٩) فَأَرِنَهُ آيَةَ الْكُبْرَى (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَى (٢١) ثُمَّ أَذْبَرَ سَعْيَهُ (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَى (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (٢٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى (٢٦)]

[هَلْ أُنْتُكَ حَدِيثُ مُوسَى (١٥)]: ما أجمل التعبير القرآني وألذّه، وما أحسن سبكه ونظمه، حينما ينتقل من أسلوب إلى أسلوب ، فقد أتى بطريقة الاستفهام، لتنبية الألفهام، ولفت الأنظار. والمخاطب نبينا محمد ﷺ، وما من قصة جرى تكرارها في القرآن، كقصة موسى ﷺ! ويعرضها بصور متنوعة. وسر ذلك، والله أعلم، ما تضمنته قصة موسى ﷺ من المواقف الجليلة، والعبر العظيمة، ولتشابه حال موسى، بحال محمد ﷺ، فإن موسى ﷺ أخرج أمته من الكفر، والظلم، والبغي، وأسس دولة كما محمد ﷺ. ولأن اليهود كانوا شوكة في جنب المسلمين في المدينة، فأراد الله أن يبين حالهم، وأخلاقهم، وصنيعهم مع نبيهم.

وها هنا إشكال! قد يقول قائل: أليس الله تعالى ذكر ما يدل على أن قصة يوسف ﷺ أحسن القصص؛ فإنه قال بين يدي سورة يوسف: **[نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣)]** {يوسف: ٣}، فلم لم يقع تكرارها، كما تكررت قصة موسى ﷺ؟

والجواب: أن قصة يوسف، ﷺ، قصة من القصص، وقصص غيره من الأنبياء أعظم فائدة ، فإن أنباء الرسل، وما جرى بينهم وبين أقوامهم من المسائل حول الكفر والإيمان، أكثر أهمية من قصة يوسف ﷺ، فلا يلزم أن يكون هذا الاستهلال في أول سورة يوسف خاصاً بتلك القصة، وإنما هو وصف لقصص القرآن جميعاً، لكن، لما كانت هذه السورة من أولها إلى آخرها قصة، ناسب ذكر ذلك في أولها. وربما يقال: أنه أتى بهذا التعبير " أحسن القصص " بين يدي قصة يوسف، لأنها من الناحية القصصية البحتة، فيها ما ليس في غيرها من السور، من عنصر المفاجأة، والتنقل من حال إلى حال، ومن نعمة إلى نقمة، ومن نقمة إلى نعمة، ومن منحة إلى محنة، ومن محنة إلى منحة، ومن عز إلى ذل، ومن ذل إلى عز. ففي هذا التنوع، من الناحية القصصية الفنية البحتة ما ليس في سواها من القصص.

[إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ١٦]: لم يسبق سبحانه جميع قصة موسى عليه السلام هنا، وإنما ذكر

سبحانه موقفاً هاماً، مؤثراً، عظيماً، جليلاً، وهو تكليم الله له تعالى له دون واسطة . فإن موسى، عليه السلام، لما سار بأهله من صحراء مدين، وقارب الطور، أنس ناراً فقصدتها، فلما اقترب من النار كلمه الله تعالى. فكان هذا الموقف بالنسبة لموسى أشرف موقف، ولا ريب.

والمناداة هي الصوت لمن بعد، كما أن المناجاة هي الصوت لمن قرب، **[وَنَدَيْتُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ**

الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْتُهُ نَجِيًّا ٥٢] {مريم: ٥٢} فالمناجاة للقريب، والمناداة للبعيد.

[بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ١٦]: المقدس: المطهر، واسمه طوى، هكذا رجح ابن كثير، رحمه الله،

وغيره. وقيل: أنه بمعنى طء، يعني أمر لموسى بالوطء، والسير عليه. وقيل: معنى طوى: الذي طويته، أي طويته يا موسى وسرت فيه. وقيل: أن طوى: بمعنى مرتين، يعني: إذ ناداه ربه بالواد المقدس مرتين، وكأنه قصد بالمرتين المناجاة، والمناجاة، فصارت الأقوال في معنى " طوى " أربعة، أقربها أنه اسم للوادي .

[أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ]: هذا هو نص النداء، نص تكليم الرب لموسى الكليم. وفرعون لقب يطلق

على من ملك مصر من أهلها. وفي سورة يوسف سمي الله صاحب مصر ملكاً فقال: **[وَقَالَ الْمَلِكُ**

أَنْتُنِي بِهِء] {يوسف: ٥٠} وفي هذا إشارة إلى أن ملوك مصر زمن يوسف، عليه السلام، غير الفراعنة، وهم

(الهكسوس). وهم قبائل أغارت على مصر في فترة معينة، أثناء حكم الأسر الفرعونية المتعاقبة.

أما في زمن موسى، عليه السلام، فقد عاد الفراعنة إلى ملك مصر . والمقصود أن (فرعون) لقب لمن ملك

مصر، كما أن (كسرى) لقب لمن ملك الفرس، و(قيصر) لقب لمن ملك الروم، و(المقوقس) لقب

لمن ملك القبط، و(النجاشي) لقب لمن ملك الحبشة، و(الخاقان) لقب لمن ملك الترك، وهكذا .

[أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ١٧]: أي تجاوز الحد وتمرد وتجبر، قبحه الله، فكان يقتل أبناء بني

إسرائيل، ويستحيي نساءهم. وبلغ به الأمر أن خرج على قومه مرة بصورة المجتهد، المستفرغ

لطاقته، واجتهاده، ونصحه، قائلاً: **[مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي]** {القصص: ٣٨}! فأدعى

الألوهية، كما ادعى الربوبية هنا.

[فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَزَكَّى ١٨]: هذا من التلطف في الدعوة! لم يقل له: زك نفسك! بصيغة الأمر،

وإنما تلطف في الأسلوب فقال له: **[هَلْ لَكَ]** يعني: أَدعوك، وأعرض عليك **[أَن تَزَكَّى]**: والتزكية تعني التطهر، بتنقية النفس من شوائب الشرك، والغل، والأخلاق الرذيلة، والتصرفات القبيحة

[وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَخَشِنِي ١٩]: وهذا لون آخر في التلطف، فإنه وضع نفسه بموضع الهادي،

والدليل كأنها يقول: أنا كالذي يمشي بين يديك، والدليل الذي يدللك على الدرب. وهذا من التواضع في الدعوة لأنه يخاطب ذا سلطان، ومعلوم أن الخطاب لأصحاب المقامات، والوجاهات، ليس كالخطاب لآحاد الناس، فينبغي أن ينزل الناس منازلهم. يقال إن واعظاً دخل على أحد الخلفاء، فوعظه موعظة جافة، غليظة، فقال له الخليفة: يا هذا! إن الله قد بعث من هو

خير منك، إلى من هو شر مني، فقال: **[فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ٤٤]** {طه:٤٤}، ولا

ريب أن الله تعالى يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف .

وفي قوله: **[إِلَىٰ رَبِّكَ]** تلطف أيضاً؛ حيث ذكره بربوبية الله له. وقوله: **[فَنَخْشَى]**: أي يثمر ذلك

لك خشية، وينقشع ما في قلبك من قسوة وغلظة.

إذا غاية الدعوة التزكية، وثمرتها الخشية **[إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ٢٨]** {فطر:٢٨}، إذا أردت

أن تقيس حالك فانظر خشية الله في قلبك. العالمون بالله حقاً هم أهل الخشية. لا تنظر إلى ما عندك من كتب، ودفاتر، بل انظر إلى ما في قلبك، فإن كان قلبك محبتاً، خاشعاً لله ﷻ، فأنت من أهل العلم؛ لأن الخشية ثمرة هذا العلم. وإلا لا فائدة من كثرة المرويات، والمحفوظات، مع قسوة في القلب. وليس في هذا تقليل من أهمية التحصيل، ولكن على طالب العلم أن يوظف علمه في خشية الله، فإن العلم النافع، هو الذي يورث الخشية.

[فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ٢٠]: أي العلامة الباهرة.

لما أبى واستكبر عرض عليه أن يريه آية، **[قَالَ أَوْلَوْ حِجَّتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ٣٠]** قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنْ

كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ٣١ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ٣٢ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ]

[الشعراء: ٣٠-٣٣] يعني: ألقى عصاه، فاستحال حياة حقيقية، وأدخل يده في جيبه، ثم أخرجها، فإذا هي تبارق بيضاء، من غير سوء! آيتان عظيمتان، باهرتان، حتى إنه أرتج على فرعون، وأخذ يخبط في التهم..

[فَكَذَّبَ وَعَصَى]: يعني: ومع أنه تحدى، ولم يصمد أمام التحدي، فقد كذب وعصى .

[ثُمَّ أَذْرَيْسَعَى]: وفوق ذلك، ما ترك الأمر مغلقاً، بل أدبر يسعى سعياً حثيثاً في الصد.

[فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٣٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٣٤﴾]: أي جمع الناس، وأعلن قاتلاً: [أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى]

يعني زاده ظهور الحق إصراراً على الباطل، حتى إنه قال لهامان، وزيره: [يَهْمَنُ ابْنُ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ] [غفر: ٣٦-٣٧] وغير ذلك من صنوف الطغيان.

[فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٣٥﴾]: اختلف المفسرون في هذا، فقيل: إن المراد بالآخرة: آخر

كلامه، والأولى أول كلامه، فأخر كلامه [أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى]، وأول كلامه [مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي] [القصص: ٣٨] ، وقيل: أن المراد بالآخرة والأولى: الآخرة، والدنيا. فالله تعالى أذاقه عذاب الدنيا، وعذاب الآخرة؛ عذاب الدنيا بالغرق، ومن قبل الغرق الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وأما في الآخرة، فلا يخفى: [النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۗ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾] [غفر: ٤٦]؛ وإنما قدم الآخرة لأنها أشد، وقيل في تفسير الآخرة والأولى: يعني أول عمله، وآخره، وهو قريب من المعنى الأول .

[إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٣٦﴾]: أي موعظة، وتوقظة، لمن في قلبه خشية، لأن الآيات،

والمواعظ لا ينتفع بها إلا أهل الخشية .

فالمعنى الإجمالي لهذه الآيات: أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يضرب مثلاً للكافرين، المنكرين

للبعث، بقصة جبار من الجبابرة الظالمين، وكيف كانت نهايته، فذكر الله تعالى بقصة موسى،

ﷺ، حينما أمره ربه أن يقصد فرعون بسبب طغيانه، وجبروته، وتمرده، وأن يعرض عليه الإيمان، وطريق الهدى، والخشية، والتزكية، فركب رأسه وأبى، وبالغ في إنكاره، وجبروته، وكفره، فادعى الربوبية، بعد أن كان قد ادعى الألوهية . فكان أن أذله الله تعالى، وأخزاه خزيًا ما بعده خزي، فأهلكه الله بالطف الأشياء وهو الماء، فأغرقه فيه، ثم يوم القيامة يحرقه بالنار. وفي هذا عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. فليتنبه هؤلاء المشركون، المنكرون للبعث، الذين يظنون أنهم إنما يمتعون في هذه الدنيا، ثم ينتهي كل شيء؛ فلا بعث ولا نشور.

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: عناية القرآن بقصة موسى، ﷺ، وكثرة تكرارها، وتنوع عرضها .

الفائدة الثانية: إثبات صفة الكلام لله، سبحانه، بصفة المناداة، فهو يتكلم متى شاء كيف شاء بما شاء.

الفائدة الثالثة: أن كلام الله، ﷻ، متعلق بمشيئته؛ لأنه قال: **[هَلْ أُنْتَكِ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ نَادَاهُ]**، و (إذ) تدل على ظرفية زمنية، فهذا يدل على أن الله يتكلم متى شاء، خلافاً للأشاعرة، والكلائية، والسالمية، وغيرهم من فرق الصفاتية، الذين يقولون إن كلامه هو المعنى القديم القائم في نفسه، وليس من صفاته الفعلية، بينما يعتقد أهل السنة إن كلام الله قديم النوع، حادث الأحاد، فهو قديم النوع بمعنى أن الكلام صفة ذاتية له باعتبار أصله، ولكنه يتجدد باعتبار آحاده، وأفراده ودواعيه .

الفائدة الرابعة: فضل موسى، ﷺ. ولهذا يقال: موسى الكليم .

الفائدة الخامسة: فضل وادي طوى وشرفه ؛ لأن الله طهره فقال: **[بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى]** .

الفائدة السادسة: قبح الطغيان وفاعله، **[أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى]**، فالطغيان مردول، مذموم.

الفائدة السابعة: التلطف في الدعوة، لاسيما مع أهل السلطان، فلكل مقام مقال.

الفائدة الثامنة: بيان غاية الدعوة وثمرتها، **[فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ۖ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتُخْشَى ۝١٩]** .

الفائدة التاسعة: تأييد الله تعالى لأنبيائه بالآيات، التي يسميها بعض العلماء المعجزات. فلما علم الله تعالى، أن من الناس من لا يستجيب إلا بآية ظاهرة، خارقة للعادة، أجرى على أيدي رسله هذه

الآيات، ولم يكلمهم فقط إلى مضمون الدعوة، بل نوع دلائل النبوة. وأعظم الأنبياء آية هو نبينا محمد ﷺ، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ أَوْ مِنْ، أَوْ آمَنَ - عَلَيْهِ الْبَسْرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحِيًّا أَوْ حَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنِّي أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ" متفق عليه^(١)، فأعظم آيات نبينا، ﷺ، القرآن العظيم، آية خالدة، وها نحن نقرأ هذه الآيات العظيمة فنعجب، ونبهر، ونددهش من تأثيرها، ومعانيها، وحكمها، كما أيده بآنشقاق القمر والإسراء والمعراج، وغيرها.

الفائدة العاشرة: غلظ كفر فرعون، وشدة عناده. ولا يعلم أحد من البشر اشتهر بإنكار

الربوبية مثل فرعون، فإنه أنكر ربوبية الله، وادعاها لنفسه، أنكرها بقوله: **[وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ]**

{الشعراء: ٢٣}، وادعاها لنفسه في قوله: **[أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى]**، ثم رتب عليها دعوى الألوهية بقوله **[مَا**

عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي] {القصص: ٣٨}! فلذلك صار مضرب المثل في الكفر، الجبروت،

والإلحاد.

الفائدة الحادية عشرة: شدة أخذ الله للظالم الطاغية **[إِنَّ أَخَذَهُ الْيَمُّ شَدِيدٌ]** {هود: ١٠٢}.

الفائدة الثانية عشرة: وجوب الاعتبار، والاعتاظ بمصارع الظالمين، **[إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى**

]. [٣٦]

الفائدة الثالثة عشرة: أن الخشية سبب الانتفاع بالمواعظ، لأن صاحب القلب القاسي مهما

رأى، ومهما سمع، ومهما وقع له، مقفل على قلبه، أما صاحب القلب اليقظ الواعي، الذي تسري

فيه نسائم الخشية ثم يتأثر، تأمل في حال أهل العلم النافع: **[قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا^٤ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا**

الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا [١٠٧] **وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا**

[١٠٨] وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا [١٠٩] {الإسراء: ١٠٧-١٠٩}، ما الذي أبكاهم؟

مجرد آيات طرقت أسماعهم، لكن هذه الآيات ليست مجرد حروف معجم، بل حروف وكلمات

وجمل ذات معاني، لامست قلوبهم، فانفعلت تلك القلوب، وهملت تلك العيون، وخرت تلك

(١) صحيح البخاري (٧٢٧٤)، صحيح مسلم (١٥٢).

الأعضاء خروراً، من أعلى إلى أسفل **يُخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ سَجْدًا** [يجعلون أذقانهم في الرغام إجلالاً لله، وخشية له. وتأمل في حال مؤمني أهل الكتاب: **وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ** ﴿٥٣﴾] {القصص: ٥٣}، وأخبر الله تعالى عنهم في موضع آخر، فقال: **وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ** ﴿٨٣﴾] {المائدة: ٨٣} ، فليحرص كل مؤمن على أن يحيي قلبه بخشية الله، هذه خشية تلين القلب ، وتجعله حسن الاستقبال للمواعظ والعبر، والانتفاع بالآيات الكونية والشرعية. نسأل الله أن يرزقنا خشيته في السر والعلن .